الفصل الثانى

النّفس التَّواقة

[. . إن لى نفساً توّاقة ، لا تَنال شيئاً
إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه] ! !

حين جاءه الشباب ، ومن بعدِ الشباب الرجولة ، كانت فضائله العالية قد وُضع أساسها فى رسوخ وثبات .

وكانت كفاياته ومواهبه ، قد انطلقت تعبر عن نفسها ، وتعطى من طاقاتها .

وفى فترة الشباب ، بكل ماللشباب من جموح وطموح ، نرى الكفايات كثيراً ماتؤثر أن تنفرد بالعمل بعيدة عن تأثير الفضائل التى تحاول كبح جماحها ، وبخاصة إذا كانت تلك الكفايات والمواهب انعكاساً لطاقة جيّاشة تَمورُ مَوْراً بالحيوية والاتّقَاد .

ولقد كانت مواهب ابن عبدالعزيز ، التى فجَّرها شبابه ، من ذلك الطـــراز المتّقد الجيّاش ، بيد أنها لم تكن من ذلك الطراز الذى يؤثر العمل بعيداً عن فضائل صاحبه .

ذلك أن شخصية – عمر – كانت مُتكاملة على نَسق فَذّ ، تكامُلا أتاح أعظم قدر من التعاون والتعاضُد بين المواهب والفضائل فى ذاتِ نفسه ، وبالتالى فى منهجه وسلوكه .

كل الذى سنراه يحدث فى شبابه ورجولته ، أن فضائله التى كانت إبّان الطفولة تعبر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيراً محدوداً . . ستوسِّع الآن – من آفاق تعبيرها ، وانعكاسات وجودها . .

ذلك أن الشباب يجىء دائماً – حين يجىء – بمسافات واسعة للأحلام والرؤى ، والحركة . .

والفضائل التى كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة ، تغادر تلك البراعم الآن ، وتذهب فى نموها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التى جاء بها الشباب . . وهكذا تتعدّد تعبيرات تلك الفضائل ، وتتكاثر مظاهرها .

ولْنضرب لهذا مثلاً من حياة « عمر » . .

إن « أناقة النفس » فضيلة بزغت فى طفولته ، ورأيناها تعبر عن نفسها آنذاك بالترفع عن اللعب مع الأتراب والأنداد والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بالترفع عن الدنايا كالكذب مثلا ، الذى أدرك الطفل – وهو طفل – أنه يُزرى بصاحبه ويوقع به الأذى والضُّر . .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بتجنُّبها لَغو القول ، ولَغو العمَل ، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمِّل المفكر . . وعن الثانى بالجدّ المثابر المتزن . .

هذه الفضيلة نفسها التى أسميناها « أناقة النفس » نلتقى بها فى شباب « عمر » تنمو وتتمدَّد مستصحبة معها تعبيراتها فى أثناء الطفولة فى نماء جديد لها . ثم مُستحدثة تعبيرات أخرى فجرَّها وعى الشباب ومشاعره .

وهكذا نرى « أناقة النفس » تتسع لتشمل أناقة المظهر ، لا باعتبار هذه الأناقة ترفاً ، أو تأنُّقاً ، بل بوصفها امتداداً لفضيلة أناقة النفس واتساعاً لدائرتها . .

ومن ثمّ نبصر الشاب والرجل فى « عمر بن عبدالعزيز » يلبس أبهى الثياب وأغلاها . . ويُضَمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه ؛ حتى إنه ليعبر طريقاً مّا ، فيعلم الناس أنه عبَره من ذلك الأريج الفوَّاح الذى يعبِق به جو ذلك الطريق زمناً طويلاً . ! !

ثم هو يتأنق فى كل شىء . . حديثهِ . . لفتاتِه . مِشيتِه التى انفرد بها ، وشغف الشباب بمحاكاتها . وعُرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ « المِشية العُمَرية » . . ! !

ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط فى أناقة المظهر كان امتداداً لفضيلة « أناقة النفس » ، ولا نقول : إنه كان ردَّ فعل لها . ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل ، هى الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز — وما أكثر ماسنراه — يعبُّ من مناعم الحياة عبًّا ، ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب . .

والجواب عن كل هذه التساؤلات . أننا لم نر فى كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأً أو جوعاً . أو كَبْتاً ؛ لأن صاحبها لم يكن يقف من النعيم منذ وُلد موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابِت المكظوم . .

هذا ، أوّل . .

وحقيقة أخرى ، هى أن « عمر » فى أروع تألقات وتأنقات شبابه ورجولته ، وفى الأيام التى كان يخوض خلالها فى النعيم خَوْضاً ، لم يُعرف عنه قط أنه ارتكب إثماً أو اجترح خطيئة من تلك التى تُشكل رَدّ فعل لِهَوًى

مكبوت ، أو رغبة مكظومة .

وعلى أية حال ، فإن تفتحاً هائلاً غمر شخصية الشاب والرجل . .

وإن نفسه التوَّاقة – كما وصفها هو – لتتقدم خلال هذا التفتح العظيم لشخصيته ، نحو كل المطالع الجديدة لخصائصها وإمكاناتها .

والطبيعة العربية فى جوهرها النقى ، من أشد الطبائع الإنسانية رفضاً للكبْت . حتى حين يكون كبْتاً لأهواء آثمة ، فكيف إذن حين يكون – كما فى موضوعنا هذا – كبْتاً لرغبات مشروعة ، وطموح فاضل وقويم . . ؟ !

وهكذا ندرك أن تلك المباهج التى ستغمر وتميز حياة « عمر » فى هذه الفترة الطويلة من حياته ، لم تكن رَدَّ فعل لفعل مُساوٍ له فى القدر مُضادٌ له فى الاتجاه . . بل كانت امتداداً للفعل الأول ذاته ، ولكنْ فى مطالع جديدة ، وأزياء جديدة . . ! !

وفى هذه الفترة من حياته تتعاون وراثاته مع مواهبه تعاوناً وثيقاً ، فالنفس التوَّاقة التى سنراها تحرك مشاعره وتقود خُطاه ، نجدها لَدَى أبيه « عبد العزيز بن مروان » تدفعه هو الآخر إلى معالى الأمور على نحو عجيب ! !

حدث أن لَحن يوماً فى حديثه مع رجل جاء يشكو إليه خَتَنه ، أى زوج ابنته ، فسأله عبد العزيز : ومَن خَتَنُك ؟

فأجاب الرجل : ختننى الخاتن الذى يختن الناس

فقال عبدالعزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِك . .

فأجابه الرجل مُعقباً : إذن كان ينبغى أن تقول : من خَتَنُك بضم النون لا بفتحها – فأسرَّها « عبد العزيز » لنفسه فى نفسه . .

وفى اليوم التالى أغلق عليه داره ، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها

مع نفر من العلماء النُّحاة حتى أجادها وأتقنها وصار مضرب المثل فى الفصاحة . . ! !

ليس ذلك فحسب ، بل أذاع بين الناس فى مصر وأفريقيا حيث انتظمهما حكمه وسلطانه أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال أوفى من الآخرين .

وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بنى أمية جميعاً وأسخاهُم ، ولم يكن يعطى عطاءه للشعراء كى يمتدحوه ويتملقوه كما يصنع الآخرون — بل كان يعطى الذين هم بحاجة إلى العطاء .

وكان شعاره فى هذا السلوك كلماته المأثورة :

« عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحُسن الثواب » ؟ !

ولقد وصفه مؤرخو سيرته ، فقالوا :

« كان من أعطَى الناس للجزيل » ! !

كذلك كانت نفسه تواقةً للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما مابلغه ابنه من بعده ، ولقد عبر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول !

« وَددْتُ أنى لم أكن شيئاً مذكوراً

« ولوددت أنى دَفْقَةٌ فى هذا الماء الجارى

« أو نَبتة بأرض الحجـــــــاز » . . ! !

هذه النفس التواقة عند الوالد . تنتقل إلى الابن على نحو أعظم ، وأشمل ، وأغزر .

ولسوف نلتقى بشخصيته المتطورة تحيا حياتها فى مهرجان حافل بالنشاط

والإبداع والاستمتاع – لايمنعها تحرُّج ، ولا يصدها تأثُّم ؛ لأنها فى نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لاتعمل بمعزل عن فضائلها ، بل تعمل فى صحبة هذه الفضائل جميعاً . .

* * * -

قلنا : إن المدينة يومئذ كانت مجتمعاً كبيراً حافلاً بكل صنوف النشاط الإنسانى .

فالجانب الروحى ، ينهض فى ممثليه من الزهاد ، والعبّاد ، والصالحين . .

والجانب العلمى ، فى ممثّليه من العلماء ، والفقهاء ، والمحدّثين . .

ودنيا الفنون ، ممثلة فى الشعراء ، والعازفين ، والمغنّين . .

ولقد أشبع – عمر – نزعته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقى عنهم . .

كما أشبع طموحه العلمى بجلوسه الطويل بين أيدى العلماء والفقاء ، وبتعلمه منهم ، وتَأسّيه بهم . .

ولسوف تواصل دوافعه الروحية والعقلية نموها ورحلتها .

لكن الجديد الذى نلتقى به الآن فى شبابه ، هو نزوعه الفنّى العجيب الذى يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه . . !

إن الرجل الذى أذن لكل مواهبه أن تنشَط وتتألق ، يفاجئنا الآن بصوت شَجِىٍّ عَذْب لو احترف الغِناء لَبَذَّ بصوته أساطِينَه . . كما يفاجئنا بموهبة فى التلحين لو احترفها لبذَّ بها أقطابَه . . يسبق هذا وذاك ولَعُه بالشعر العربى وحفظه الكثير منه وقدرته على نقده ، وتمييز أجوده ، من جيِّده ، من رديئه . .

لقد وضع الفنَّان الموهوب لحناً آسراً لهذه الأبيات .

سُلَيْمى أزمَعَتْ بَيْـــنا فأين تَظُنُّها أيْنَـــــا
وقد قالت لأتـــرَابٍ لهـــا زُهْرٍ تَلاقَيْنـــا
تعالَيْنَ فقـــد طاب لنـــا العيش تعالَيْنا

وراح يتطرب بها ويتغنى لنفسه وبين أصدقائه ، بَيْدَ أنَّ اللحن لم يلبث حتى ذاع ، فراح المغنون يَشْدُون به فى كل مكان . . !

ولقد كان ابن سريج وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذ ، يغنى من لحن « عُمر » .

عَلِق القلبُ سعـــادا عادت القلبَ ، فعادا
كلما عُوتب فيهـــا أو نُهِى عنها تمـــادَى
وهو مشغوف بِسُعـــدى قد عصَى فيها وزادا

غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل . . وانتشائه بكل غِناء عَذْب ، بل على الرغم من صوته الندى الشجِيِّ ، لم يكن يُرخى العنان لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوتُ تُقاه يعلو دوماً داخل نفسه ؛ حتى إننا لنراه يقول – أكثر من مرة – وهو يستمع لابن سريج يُغنى :

« لله دَرُّ هذا الصوت ، لو كان بالقرآن » ! !

ونجد الشعر يظفر منه باهتمام كبير ، ولا غَرو . . فالشعر يومئذ كان ثقافة العصر ولُغَته . .

ولئن كان – عمر – لم يقرض الشعر ولم يُنشىء قصائده ، فإن نفسه التوّاقة التى جعلته يُزاحم فى الغزف والغناء أقطابهما حتى يتفوَّق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف . .

هذه النفس التواقة تدفعه لكى يُدلى فى ثقافة العصر بِدَلْوه العظيم ،

فإلى جانب ماحصل من علوم الدين والفقه ، راح يُقبل على الشعر حافظاً وناقداً . .

ولقد كان الولَع بالشعر من أوضح سمات المجتمع العربى والإسلامى فى تلك العهود .

وفى العصر الأموى ، كان له دَوِىٌّ كدوىِّ النحل ، وكان فحُوله الثلاثة – جرير ، والفرزدق ، والأخطل – الذين نُعتُوا بـ « المثلث الأموى » . . يملأون الدنيا ويشغلون الناس . .

* * *

ولسوف تطرأ على حياة الشاب ظروف جديدة تشد زناد نفسه « التوَّاقة » إلى أقصاه فى مضمار التفوق فى مجال العلم ودنيا الشعر .

ذلك أن أباه – عبد العزيز بن مروان – يموت بمصر حيث كان والياً ويدفن تحت ثراها الطيب ، فيضم الخليفة ، « عبد الملك بن مروان » ابن أخيه إليه ، ويزوجه ابنته « فاطمة » . .

وعبد الملك هذا ، كان طويل الباع فى الفقْه ، والعلم ، والشعر بل كان فى الفقه يُضاهَى بعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيّب .

قال عنه الشعبى :

« ماذاكرت عبد الملك حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً ، إلا زادنى فيه »

وقال هو عن نفسه :

« شَيَّبنى ارتقاء المنابر ، وخوف اللَّحن »

ولعلّ حواره هذا مع جرير يعطينا صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء .

فقد سأل جريراً يوماً :

: مَن أشعر الناس ؟

قال جرير : ابن العشرين . يعنى طَرَفَة بن العبد ، لأنه قُتل فى سن العشرين .

قال عبد الملك : فما رأيك فى ابنى سُلْمى . . ؟ يعنى زهيراً وابنه كعباً . .

قال جرير : كان شعرهما نَيِّراً ، يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : فما تقول فى امرئ القيس ؟

قال : اتخذ الخبيثُ الشعر نعلَيْن .

قال الخليفة : فما تقول فى ذى الرُّمَّة ؟

قال جرير : قدَر على طريف الشعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد . .

قال عبد الملك : فما تقول فى الأخطل . . ؟

. . . ثم ما تقول فى الفرزدق . . ؟

. . . ثم ما رأيك فى نفسك وشعرك . . ؟

ويمضى الحوار بينهما طويلا – كما يرويه صاحب الأغانى – لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان . والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلاّمة تحت سقف واحد . فإن نفسه التواقة تدفعه دفعاً قوياً ليضارع هذا العمَّ المتفوق فى الفقه ، وفى العلم ، وفى الشعر . . !

بيد أن الزمام باق دائماً فى قبضة فضائله . . وأيّانَ تذهب مواهبه وتُحلِّق ، فإن لفضائله ولدينه الكلمة الأخيرة ، مهما تتوَاثب نفسه التواقة ، ومهما يأخذها الطموح ؛ فمع ولعه بالشعر وإقباله عليه ، نلقاه يعزف عزوفاً نبيلاً عن كل مافيه من إسفاف الهجو والتشبيب . حتى لسوف نراه حين يصبح

والياً للمدينة ، يخرج منها « عمر بن أبى ربيعة » لما كان يزخر به شعره من مجّانة ، واستخفاف بالحُرمات . . ! !

* * *

خلاصة القول أن – عمر بن عبدالعزيز – أسلَم مواهبه لغاياتها البعيدة . .

كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها فى نطاق ما أحل الله لعباده . .

ولقد ساعد طبيعتَه الجياشة فى الظفر بكل ماتريد ، أنها وجدت فى الحلال أقصى ماتريد . . وأن الشاب الذى لم يكن ينقصه الفقه وسَعة الأُفُق . لم يُحاول كبح جماحها أبداً . . ! ! !

لكأنما سرّه منها شرفُها واستقامتها وترفعها ، فكافأها على ذلك وأثابَها بتركها تنال من المناعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهى وتريد . .

ولكأنما أراد القدَرُ الحكيم أن يجىء شباب ابن عبد العزيز على هذه الصورة المستغرقة ، حتى إذا تسنَّم الخلافة فيما بعد ، ووقع فى حياته ذلك الانقلاب الروحى الذى سَيحوِّله إلى واحد من أعظم القدِّيسين ، يتبين للدنيا يومئذ أن زهده و ورعه لم يكونا مظهراً لطبيعةٍ منطوية ، هادئة ، هامدة . . بل كانا ثمرة تفوق روحى خارق ، على طبيعة هادرةٍ بالطاقة . . جيّاشة بالطموح . . ! !

أجل . . لسوف يُرينا القدَرُ من أمر هذا الرجل عَجباً . . ! ! فبينما هو اليوم يُجاء له بثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير العراق فيتحسَّسُه بأنامله ثم يقول متأففاً :

« ما أخشنه من ثوب . . . ! ! »

إذا به غدا عندما سنلتقى به خليفة للمسلمين ، يُجاء له بثوب خَشِن يعافُه أكثر الناس فقراً ، فيتحسَّسه بنفس الأنامل ، ثم يقول والدموع تنهمر من عينيه :

« ما أَلْيَنَه ، وأنعمَه . .

إيتونى بثوب أخشنَ مِنه . . . ! ! ! ! »

* * *

فلْيَتُقِ الأمير الأموى ماشاءت له نفسه التواقة الذواقة . فإن فترة تَوَقَهِ هذه ، ستكون المرآة التى تعكس لنا الإعجاز الخارق الذى ستفاجئنا به سنوات خلافته . . ! !

لِيَتُقِ الآن ماشاء . . .

ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمَها . . ولْيَنَلْ من المطاعم أشهاها وأطيبها . . وليركب من الجياد أعلاها وأطهمَها . . ومن الفُرش أسخاها وأوثرها . . ! !

ولْيَنهل من العلم بغير حساب . .

ولْيذهب من الفضائل بكل مكرُمة وثواب . .

ولْيَحتَوِ الدنيا بطولها وعَرضها ، كما يحتوى الغلاف الكتاب . . ! !

* * *

هاهو ذا ، يتقلب فى نعيم يتعاظَم كل وصف ، ويتحدَّى كل إحاطة . . إن دخله السنوى من راتبه ومخصصاته ، ونتاج الأرض التى ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار . . ! !

وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة ، فينتظم موكبه خمسين جَمَلاً ، تحمل متاعه . . ! !

وإنه لَيشترى الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة واحدة . . وإنْ تَواضَع فمرتين . . ثم يبدو فى عينيه قديماً بالياً . . ! ! !

وإنه لَيُسْبِلُ إزاره ، حتى يكاد يتعثر بذيله الهفهاف . . ! !

ويمشى مِشية متأنقة ، يكاد يحسده عليها الطاووس . . ! !

ويَعصِف ريحه ، ويتضوَّع عبيره حيثما سار . . ! !

إنه لَيبدو ، وكأنه فى سباق ضارٍ – لا مع أصحاب النعيم – بل مع النعيم ذاته . . ! !

فوا عجباً . . ! !

كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله ، وفى لحظة من الزمان ، حين تواتيه الخلافة ؛ حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده . . ؟ ! !

ألاَ إن شوقنا لرؤية ذلك التحول المذهل ، لَيكاد يُعْجِل بنا ويقفز . . لكن علينا أن نُصابر ونَستأنى ، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز مانحن فى حاجة إليه ، لكى نرى كل ملامح الصورة . . وزوايا الإطار . . ! !